

البحر في المتخيل المغربي

البحر في المتخيل المغربي

عبد المجيد القدوري

تمهيد

كيف تمثل المغاربة البحر؟ و ما هي المواقف التي تبنوها اتجاه هذا المجال الحيوي عبر العصور والأحقاب؟ هل حقا كان يرعبهم البحر؟ و ما هي الدوافع التي جعلت الكتابة الاستعمارية تنسج حول هذا الرعب المزعوم مجموعة من النظريات؟ للإجابة على هذه التساؤلات حاول الأستاذ عبد المجيد القدوري تقديم قراءة جديدة للأسطوغرافيا الاستعمارية انطلاقا من هواجس مغربية و اعتمادا على مؤلفات وطنية ذات ارتباط وثيق بموضوع البحر. فتوصل الباحث في الأخير إلى أن المتخيل المغربي مومن بالوحدة داخل التنوع.

لقد اعتمدت فرنسا في احتلالها للمغرب على مؤسسة "البعثة العلمية" التي حاولت دراسة المغرب و المغاربة و عملت على استكشاف مواطن ضعفهم و انتهت في أعمالها إلى بناء نظريات متعددة و ساذجة: من بين هذه المقولات أن المغاربة يديرون ظهرهم للبحر لأنهم يتجهون في صلاتهم نحو القبلة (مكة المكرمة). فخوفهم من البحر ظاهرة ثقافية و بعد ذهني و لهذا كان الأجانب هم الذين يتكلفون بكل ما يتعلق بالبحر.

من أجل هدم هذه المواقف المسبقة اعتمد الأستاذ القدوري مؤلفات مغربية ذات دلالات بين من خلالها أن المتخيل المغربي يتنوع و يتعدد بتنوع الظرفيات و المراحل و يختلف باختلاف تجارب الأشخاص و الجماعات فإذا كان الشريف الإدريسي، و ابن بطوطة قد قدما البحر كفضاء غني كانت تلتقي فيه بواسطته تجارب الأمم و الحضارات و الثقافات فلأن العالم الإسلامي كان وقتها سيد البحار و المحيطات لم يكن يشعر فيه العالم المسلم لا بالرغبة و لا بالغرابة لكن تحول ميزان القوى خلال العصر الحديث لصالح أوربا جعل المسلمين عموما و المغاربة خصوصا يشعرون بالقلق و الخوف لأن البحار صارت مصدر الأخطار على المغرب و المغاربة.

و كان متخيل "العامة" لا يدرك دائما هذه الأخطار و هذه الحيثيات لذلك كانت العامة كلما عجزت عن فهم الأمور المستعصية تلجأ إلى تحويلها إلى قوة ربانية و تستعين على فهمها ببركة أولياء البحر.

و على العكس من ذلك كان المخزن مهتما بالملموس و لأجل هذه استعمل البحار كمجال نفعي استخدمه كحاجز أمني و حاول من جهة أخرى أن ينبني فضاء متوسطيا و محيطيا (الصويرة) و عمل من خلال و بفضل هذا المجال على إدماج المغرب في التجارة الدولية عن طريق مؤسسة تُجّار المخزن الذين عرفوا أساسا " بتُجّار السلطان" .

يتوفر المغرب على واجهتين بحريتين، البحر الأبيض المتوسط مهد لعديد من الحضارات السماوية ثم واجهة المحيط الأطلسي الذي هو مجال للتداخل بين الشعوب منذ أقدم العصور. لقد ساهم المغاربة في بناء الثقافات المتوسطية واستمد المغرب أصالته من التداخل الحاصل منذ أقدم العصور بين الحضارات الإفريقية والحضارات المتوسطية والمحيطية. ولعب دور الوسيط ومنطقه التبادل والتواصل بين شمال وجنوب، شرق وغرب البحر الأبيض المتوسط. سهلت هذه التداخلات المختلفة التعايش بين الشعوب والحضارات كما يتجسد ذلك في مفهوم الغرب الإسلامي. ويظل المغرب أحد رواد بناء الثقافة المتوسطية وتكفي الإشارة إلى إسم جبل طارق واستحضار صومعة لاخيرالدا بإشبيلية وشقيقتها الكتبية بمراكش للتعبير عن دور المغرب النشيط والخلاق في البحر الأبيض المتوسط. فهل يمكن التحدث عن هذا الإبداع الإيجابي إذا ما استبعدنا دراية المغاربة بأمور البحر؟

كعنصر نشيط وفاعل داخل البحر المتوسط، كان من البديهي أن يتعرض المغرب للتأثير السلبي الناتج عن توسيع رقعة نفوذه : أرغمته حروب الاستردادات على الانكماش لكن ذلك لم يمح طابع الانفتاح والتسامح مع الآخر. لقد كان دور المغرب، من جهة أخرى مهما في بناء ثقافة المحيط الأطلسي كما تؤكد ذلك الأسطوغرافية الأوربية نفسها. اعتبر المؤرخون البرتغاليون المغرب المدرسة التي كانت وراء تأسيس الهوية البرتغالية ومنطلق استراتيجيتها العسكرية. ففي مدينة سبتة تعرف البرتغاليون على المعطيات اللازمة لغزو إفريقيا وفي المغرب تكونت الأطر التي كانت تمثلهم لا في أوربا فقط بل في الشرق بكامله. ساهم التدخل البرتغالي في تجديد المغرب وأدى إلى ميلاد دولة الاشراف فيه.

همشت الكتابة الاستعمارية اهتمام المغاربة بالبحر وأبعدت الأدوار التي لعبها هذا المجال في تكوين هوية المغرب. وعملت على إبراز المغرب ومؤسساته في مستوى الإنسان البدائي العاجز على إدراك المعطيات الطبيعية التي لا يتحكم فيها بالملموس فيلجأ إلى تأويلها تأويلا ساذجا يمزج فيه بين الانبهار والخوف. فيجعل وراء كل ظاهرة طبيعية قوة ربانية. كل هذه الاعتقادات والتأويلات الموجهة تصب في نفس الاتجاه أي تشويه صورة العلاقات التي تربط المغاربة بالطبيعة عموما وبالبحر على وجه الخصوص. يرى لويس برونو أن المتمعن في سلوك ومعتقدات الإنسان المغربي سوف يجد فيه الإنسان الذي يجمع بين عادات و طقوس دينية وثنية و معتقدات إسلامية. من خلال ما سبق يمكننا أن نتساءل: هل يمكن استخلاص فكرة حول موقف المغاربة من البحر؟ هل ولى المغاربة ظهرهم إلى البحر كما تدعي الكتابة الاستعمارية؟ وهل يمكن التحدث عن البحر في متخيلات مختلفة؟

إدريس بن صاري



تـعـتـقـد الأسـطوغـرافـيـة الإسـتـعـمـاريـة بـأن البـحـر يـخـيـف المـغـاربـة.

استخدمت أوربا، منذ العصر الحديث، البحار كوسيلة لإقلاعها الاقتصادي والاجتماعي حيث عملت على نمو صناعاتها المدنية والعسكرية المرتبطة بمجال البحر. لتوضيح الفكرة تكفي الإشارة إلى الإنجازات التي حققتها بعض البلدان الصغيرة كهولندا التي استطاعت السيطرة على الأخطار البحرية التي كانت تهدد كيانها كبلد، بل عرفت كيف تسخر هذا المجال في تنميتها. وسارت كل من البرتغال وإنگلترا في نفس الاتجاه. لقد أكد مؤرخو هذه البلدان على أن السيطرة على البحار هو السبيل الذي مكنها من السيطرة على التجارة العالمية. وقد عبر الشاعر البرتغالي فرناندو بسوا عن هذا الإحساس بقصيدة جد معبرة قال فيها:

أيها البحر المالح، كم يعج ملحك
بدموع برتغالية
فهل يستحق الأمر ذلك؟ بلا،
فكل شيء يستحق التضحية إذا لم يكن الطموح محدودا
فمن يطمع في تجاوز رأس بوجدور
عليه أن يتحمل الآلام وأن يحسن استعمال هذا الطريق.
جعل الله الأخطار والهاوية بالبحر
لكن أديم السماء ينعكس على سطحه.

1 ـ الكتابة الاستعمارية أو سياسة التناقض.

من الواضح إذن أن البحار تكتسي أهمية كبيرة في حياة وذهنية الإنسان الأوربي الذي سيطر على العالم وملأه بمواقفه المسبقة حول "الآخر" الذي ظل بعيدا ومختلفا عنه وعن قناعاته. وفي هذا السياق نفهم النظريات والفرضيات التي نسجتها الكتابة الاستعمارية عن جهل المغاربة بالبحر وعدم اهتمامهم به.

قبل الاحتلال العسكري للمغرب لجأت فرنسا عن طريق "البعثة العلمية" إلى استكشاف العقلية المغربية من الداخل. وبفضل ذلك تمكنت سلطات الحماية، من إفراز مكامن القوة والضعف عند المغاربة حيث استخدمت العلم وجالت في الميدان مما مهد لها السبيل للاحتلال الفعلي للمغرب واستغلال كل خيراته. اتبعت سلطات الحماية سبل ملتوية واتخذت ذرائع مختلفة لتبرر احتلالها للمغرب. فتساءل مؤرخوها كيف يعقل أن يتجاهل المغرب الخيرات التي توفرها له سواحله التي تقدر بثلاث آلاف كلمتر؟ يرى روبيرت مونطان أنه من غير المعقول أن يكون



المغرب تحت رحمة الأمطار وأن يبق مهددا بالمجاعة في الوقت الذي تعد فيه مياهه البحرية من أغنى المياه الأطلنتيكية. هناك فكرة تتردد في جل المؤلفات الاستعمارية ألا وهي جهل المغاربة كل ما يتعلق بالبحار، بل تتعدى هذه الأطروحات ذلك وتؤكد بأن معتقدات الساكنة المحلية في الميدان البحري مرتبطة بمعتقدات بلهاء وقديمة. في نفس السياق، ينعت لويس برونو الملاحين المغاربة "بالمتعلمين المتواضعين" ويرى لاووس بأن البرابرة يجهلون حتى أبسط المعلومات عن المحيطات. بل ذهب هؤلاء أبعد من ذلك ليعمموا ما نسجوه عن المغرب ليقولوا بصوت صارخ أن البحار والمحيطات تخيف العالم العربي بل الشرق كله على عكس الأوربيين الذين سيطروا عليها وسخروها لخدمة مصالحهم.

حاولت المؤلفات الاستعمارية أن تفسر عدم اكتراث المغاربة بالبحر بسبب جهلهم لأموره. وأكدت هذه الكتابة على الرعب الذي يشعر به المغاربة اتجاه البحر لأنهم كانوا غير مؤهلين للسيطرة على هذا المجال. ولتجسيد هذا الخوف، وقف المؤرخون الاستعماريون عند وصول عقبة بن نافع ساحل أسفي حيث "اضطر إلى الوقوف - يقول برونو - وفي هذا دليل على خوفه من التوغل فيه ويرجع هذا الرعب إلى الجهل الناتج عن معتقدات بلهاء ورثها المغاربة عن أقدم العصور من فهم المعطيات البحرية فأهملوا الثروات الموجودة فيها وتركوا الفرصة للأوربيين الذين تمكنوا في النهاية من السيطرة على المحيطات والبحار". بفضل هذه "الأدلة" وهذه التبريرات استطاعت فرنسا أن تفرض سياستها التوسعية. لقد نجحت هذه الكتابة في حجب الواقع وخلقت متخيلا مغربيا متعلقا بالبحر كان يسعى بالأساس إلى دعم وخدمة مصلحة سلطات الحماية. لقد أكد لويس برونو على دور المعتقدات الإسلامية في جهل المغاربة بالبحر. يأمر الله المسلمين أن يتجهوا في صلاتهم صوب الشرق وبهذه الممارسة اليومية المتكررة فإن المغاربة قد تعودوا على إعطاءظهرهم إلى البحر ويزيد الكاتب في مغالطته مؤكدا أن التوجه إلى الشرق قد انعكس كذلك على التجارة التي كانت تتم بواسطة قوافل تمر عبر البلدان الإسلامية.

لقد سار روجي كُوَنْدرو في نفس الاتجاه فاستعمل تصريحات بعض السلاطين بعدما أخرجها من سياقها الأصلي ليؤكد أن تجاهل المغاربة للبحر نابع من رغبة السلاطين أنفسهم. واستشهد بقولة للمولى إسماعيل تقول بأن الله قد مكن المسلمين من السيطرة على المجال البري تاركا للكفار المجال البحري. وانطلق المؤلفون الاستعماريون من حياة المغاربة اليومية لترويج مقولات كالعرب رحالة وأن البربر مستقرون. فإذا كان الأوائل مهتمين بتربية الماشية فإن البربر قد شغفوا بالفلاحة. فقد اهتم المغاربة - تقول الكتابة الاستعمارية بركوب الخيل وأهملوا ركوب البحر.

2 - الأنشطة البحرية في المغرب من عمل الأجانب ؟ !

ترى الكتابة الاستعمارية، من جهة أخرى، أن كل ما يتعلق بالبحر في المغرب هو من عمل الأجانب لا المغاربة. فالحضارات البحرية التي تعاقبت على المغرب كالفينيقيين، والقرطاجين، والرومان، والإيبيرين والفرنسين كلها آتية من الخارج. فالمغاربة أصحاب نزعة قارية وظلت عواصم بلدهم إلى مطلع القرن العشرين داخلية (فاس - مراكش - مكناس) ولم ينجح السلاطين الذين أرادوا استبدال العواصم الداخلية بعواصم على الساحل. وتحقق ذلك على يد اليوطي زمن



PARTIE DU DETROIT DE GIBRALTAR
ou se fait
LA COMMUNICA^TION DE LA MEDITERRANÉE
AVEC L'OCEAN.

MER MEDITERRANÉE

Sud Est
Sud
Sud Ouest
Est
Ouest
Nord Est
Nord
Nord Ouest

Mouillage
Ance de Geatre
Partie de l'Escadre Angloise commandée par le Vice Amiral
Isle des Algeciras
Algeciras ou Vieux Gibraltar
GIBRALTAR
BAYE DE GIBRALTAR
Plaine et Dunes de Sable
Algaziers ou Algeciras
PARTIE D'ESPAGNE
Teste de la Plaine de S.t Roch



الحماية. لقد ازدهرت الملاحة في المغرب في بعض الفترات على يد العناصر الأندلسية التي أرغمت على الهجرة بعدما استرد المسيحيون الأندلس. فالقرصنةالتي تتحدث عنها النصوص كانت مرتبطة أولا و قبل كل شيء بالأجانب .فالمغاربة لا يستعملون البوصلة وليست لهم أية خبرة في علم البحار ولم يكتسبوا الحنكة ولا التجربة اللازمة في الملاحة بل كانوا يعتمدون على الأسرى، والعلوج والأتراك والمسيحيين لقيادة السفن مما يؤكد ذلك قلة المفردات والمصطلحات البحرية في اللغة العربية، إذ أن جلها مقتبس من اللاتينية أو من اللغات المتفرعة عنها.

حسب النظرة الاستعمارية فإن المغاربة قد عجزوا عن فهم المعطيات البحرية ولذلك تخلوا عن ثروات هذا المجال لصالح الأوربيين. لقد دعمت هذه الكتابة وبررت التدخل الاستعماري بنسجها لمتخيل مغربي عن أمور البحر. لقد أبعدت الواقع وهمشته فلم ترى من علاقات المغاربة بالبحر إلا ما أرادت أن ترى وتقدم، ويبقى من اللازم إعطاء نظرة المغاربة للبحر انطلاقا من مقاربة داخلية واعتمادا على معطيات وأحاسيس مغربية.



نـــظـــرة الـــعـلـــمــــاء إلـــى الـــبـحـــر.

لقد أشرنا سابقا إلى أن المتخيل المغربي متنوع ولا ينحصر في قالب واحد ذلك، أن داخل نفس الطبقة الاجتماعية يوجد تباعد في الإدراك، من تم يمكن طرح عدة تساؤلات : هل يمكن القول بأن العلماء يكونون طبقة اجتماعية متراصة و ملتحمة ؟ هل سلوك الفقهاء اتجاه البحار شبيه بسلوك العلماء، الكتاب و المتصوفة ؟ هل مواقف العلماء ثابتة أو متقلبة تتغير بتغير الأوضاع والظرفيات؟ للإجابة عن هذه التساؤلات والإحاطة بنظرة هذه النخبة من المجتمع اتجاه البحر، علينا أن ندرس ما كتبه عدة علماء في الموضوع عبر فترات زمنية مختلفة.

1 - مؤلفات عن البحر.

يستحيل تجاوز عمل كل من الإدريسي (قX) وابن بطوطة (قXIV)في موضوع البحر. لقد ألف الأول كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق وأما الثاني فقد ترك تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. كان ولوع وشغف العالمين بالأسفار بارزا وبسبب هذا الشغف الصادق تمكنا من توصيل أحاسيسهما العميقة بكل سهولة إلى قرائهما كما يتجلى ذلك من عنوان كتابيهما. يحكي الإدريسي في النزهة المتعة التي يعيشها الشغوف بالأسفار عند اكتشافه لعوالم كان يجهلها. وأما ابن بطوطة فكان يرى في الأسفار معرفة النفس وتكوين الذات قبل اكتشاف الآخر ومعرفته لأن في هذه المعرفة فرصة تحديد ملامح الهوية. فالكتابان انعكاس للوضعية التي كان يعيشها العالم الإسلامي. والتي كانت تتلخص في كونه عالم ديناميكي حيوي وإن ميزان القوى كان في صالحه لأن الانطلاقة الأوربية كانت لا تزال في بدايتها. فالمبادلات البرية والبحرية كانت وقتها في يد العالم الإسلامي.

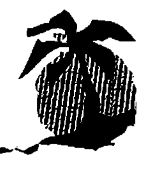
يصف الشريف الإدريسي المحيط الأطلسي ببحر الظلمات حيث يؤكد أن لا أحد كان يعرف ما يوجد وراء هذه المساحات المائية الشاسعة لدى كان يكتفي البحارة بالملاحة بالقرب من سواحله دون المخاطرة بحياتهم في أعماقه. تطرق هذا الرحالة إلى مضيق جبل طارق وحث على ضرورة الاهتمام به من أجل المحافظة على قوة الروابط القديمة التي تجمع الأندلس بالمغرب. وفي هذا السياق تحدث الإدريسي عن العلاقات النشيطة التي كانت تربط سبتة وطنجة بموانئ المغرب الأطلنتيكية من جهة ثم علاقات هذه الموانئ كلها مع السواحل الأندلسية .و بين الإدريسي أن أمن مياه هذه السواحل كانت غنية بالأسماك حيث وجد بها أزيد من أربعين نوعا.ووقف هذا الرحالة عند ميناء سلا النشيط والحيوي رغم موقعه المعروف بظروفه الصعبة الغير ملائمة للملاحة. فكانت سلا هي المقصد المفضل عند البحارة الذين كانوا يفدون على هذا الميناء من إشبيلية و من كل السواحل الأندلسية بهدف التجارة. بالإضافة إلى هذا، فقد تطرق المؤلف إلى موضوع المبادلات التجارية المزدهرة التي كانت تجمع بين الأندلس والسواحل المغربية من جهة و جزر الكناريا من جهة أخرى. وأبرز دور البحر في تطور المغرب مظهرا بأن هذا المجال استعمله المغاربة كوسيلة من أجل ربط بلادهم و فتحها على العالم الخارجي عكس ما أكده المؤرخون الاستعماريون.



في نفس السياق، حاول ابن بطوطة خلال القرن الرابع عشر إثبات قوة المسلمين وسيطرتهم على المجال البحري حيث أن أسفاره مكنته من الاطلاع على مناطق نائية: البحر الأحمر، الخليج العربي، المحيط الهندي، بحر الصين وعاين عن قرب الحضور الإسلامي المكثف فيها. يتضح إذن أن المحيطات والبحار كانت، خلال العصور الوسطى، أحد مصادر القوة الاقتصادية بالنسبة للمسلمين الذين كانوا يعتمدون على مهارة وكفاءة بحاراتهم وهذا ما أكدته المؤلفات الإيبيرية نفسها. فقد اعترفت هذه الأخيرة بمساهمة البحار العربي ابن ماجد في مساعدة فاسكو دي گاما على الاتجاه نحو الهند عبر السواحل الإفريقية وكانت هذه الكتابة تطلق على المسلمين "أناس البحار".

أول سفينة ركبها ابن بطوطة كانت سفينة عربية كما أثبت ذلك في رحلته عندما قال: " ثم ركبنا البحر من جدة في مركب يسمونه الجلبة، وكان لرشيد الدين الألفي اليمني الحبشي الأصل. وركب الشريف منصور بن أبي نمي في جلبة أخرى، ورغب مني أن أكون معه فلم أفعل لكونه كان معه... فخفت من ذلك ولم أكن ركبت البحر قبلها... ثم سافرنا في هذا البحر بالريح الطيبة يومين، وتغيرت الريح بعد ذلك وصدتنا عن السبيل الذي قصدنا، ودخلت أمواج البحر معنا في المركب، و اشتد الميد بالناس.و لم نزل في أهوال حتى خرجنا في مرسى يعرف براس دوائر". (ابن بطوطة، تحفة النظار، بيروت، 1979 ، ج 1، ص 268). لقد أورد ابن بطوطة في أماكن مختلفة من الرحلة اهتمام المسلمين بالبحر لأنه كان مصدر عيشهم ومجال تواصلهم مع الحضارات الأخرى. كان البحر مندمجا في حياتهم اليومية والأمثلة التي ساقها هذا الرحالة كثيرة وجد معبرة فعند كلامه عن سكان ميناء حاسك بالخليج العربي كتب يقول: "وفي اليوم الثاني لركوبنا نزلنا بمرسى حاسك ، وبه ناس من العرب صيادون للسمك ساكنوه هنالك... ولا معيشة لأهل ذلك المرسى إلا من صيد السمك، وسمكهم يعرف باللخم، وهو شبيه كلب البحر، يشرح ويقدد ويقتات به. وبيوتهم من عظام السمك، وسقفها من جلود الجمل." (ابن بطوطة، التحفة، ج 1، ص292).

قدم هذا الرحالة البحر كعنصر مندمج في حياة المسلمين ولايشعر القارئ لرحلته أن البحار والمحيطات كانت مصدر خوف وقلق كما حاولت الكتابة الاستعمارية أن تبين. فهو لم يبعد الخوف الذي كان يشعر به المسلمون اتجاه البحر لكن قدمه كرعب وكشعور عادي نجده عند كل الناس لأنه يدخل ضمن إرادة الحفاظ على الذات وليس ناتجا عن ثقافة موروثة تخص المسلم وحده في علاقاته مع المحيطات. ونلمس موقف ابن بطوطة هذا عند كلامه عن الأخطار التي كانت تصيبه من جراء هيجان البحار إذ قدم الحادث كأمر عادي فالخوف من الغرق والهلاك يصيب كل البشر: "وقويت الريح وكاد الماء يدخل في المركب، ولم يكن لنا رائس عارف، ثم وصلنا إلى حجارة كاد المركب أن ينكسر فيها ثم دخلنا بحرا قصيرا، فتجلس المركب ورأينا الموت عيانا، ورمى الناس بما معهم وتوادعوا، وقطعنا صاري المركب فرمينا به... فأردت أن أنزل في المعدية، وكان لي جاريتان وصاحبان من أصحابي، فقالا "أتنزل وتتركنا؟" فاثرتهما على نفسي، وقلت "انزلا أنتما والجارية التي أحبها". فنزل رفيقاي، والجارية معهما... وجعلت معهم ما عز علي من المتاع والجواهر والعنبر، فوصلوا إلى البر سالمين... وأقمت بالمركب... فجاء الليل ودخل معنا الماء، فصعدت إلى المؤخر وأقمت به حتى الصباح." (ابن بطوطة، التحفة، ح 2، ص 688.)



من خلانل الإدريسي وابن بطوطة يتضح أن العالم الإسلامي في شرقه وغربه قد شارك في تنشيط المبادلات البحرية لا في البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي فقط بل البحر الأحمر، والمحيط الهندي وبحر الصين كذلك وكان المسلمون مسيطرين خلال العصور الوسطى على التجارة البحرية والبرية و أنهم كانوا صلة الوصل بين أوربا والشرق بل ساهم البحارة المسلمين في دعم الكشوف الجغرافية الكبرى و أن انكماش العالم الإسلامي قد أتى في وقت لاحق و جاء نتيجة انقلاب موازين القوى التي صارت خلال العصور الحديثة لصالح أوربا. فالمؤلفون الذين أكدوا على أن غياب المسلمين في المجال البحري ناتج عن خوف فطري من المحيطات يغالطون في الواقع.

2 ـ سيطرة أوربا على البحار خلال العصر الحديث والقلق المغربي.

شكلت الاكتشافات الجغرافية الكبرى، المنعطف ونقطة تحول في موازين القوى التي رجحت كفة المسيحيين مما حول نظرة المسلمين اتجاه البحار التي أصبحت مصدر خطر بالنسبة لهم وقد انتبه ابن أبي محلي في مطلع القرن السابع عشر لهذا الخطر عندما شبه جزيرة مالطة بالثعبان الذي يتربص ويهاجم الحجاج ويبتلعهم. وما أسر الحسن الوزان سنة 1518 إلا دليل على ذلك. فسيرة هذا العالم المتميز تجسيد واضح وانعكاس للواقع الناجم عن سيطرة أوربا على المحيطات والبحار خلال العصر الحديث. لقد أسر هذا العالم قراصنة مسيحين وسلموه، بعدما فطموا إلى نباهته، إلى البابا ليو العاشر الذي قربه منه، بعدما نصره وأعطاه إسمه. فأصبح يحمل إسم ليون الإفريقي. وصار هذا العالم الغرناطي المسلم الأصل مسيحي العقيدة، إطالي الجنسية. ويمكن أن نرى في مصيره طبيعة التداخل الذي كان حاصلا في البحر الأبيض المتوسط خلال هذه الفترة. لقد شجع البابا المذكور الحسن الوزان على تأليف كتاب عن إفريقيا عرف بوصف إفريقيا ويعتبر هذا المؤلف مرجعا تاريخيا أساسيا. فسيرة الوزان مرآة لتاريخ العالم الإسلامي: فبعدما عاش هذا العالم إشعاعا وازدهارا خلال القرون السابقة أخذ ينحدر شيئا فشيئا إلى أن أصبح يعيش الانعزال والانكماش. وعلى العكس من ذلك أصبحت أوربا متخذة للمبادرة حيث استطاعت أن تفرض سيطرتها على البحار والمحيطات ودخلت مرحلة السعي إلى استكشاف خفايا "الآخر" ومعرفة ضعفه من أجل بسط منطقها ونفوذها عليه.

كان المد الإيبيري منطلق التوسع البرتغالي في المغرب، وشكل احتلال مدينة سبتة 1415 أول إنذار حقيقي يعلن تدهور الأوضاع داخل التراب المغربي، ومما زاد من حدة هذا التدهور ضعف الدولة المرينية وتزايد الحركات الوطاسية ضد القبائل الموالية للبرتغال. وأدت هذه الحركات إلى عزوف الساكنة عن السواحل المغربية والهجرة نحو المناطق الداخلية. وفي غياب السلطة المركزية فضل بعض المغاربة الحماية البرتغالية على العيش تحت وطأة الخوف من النهب والسرقة، لكن سرعان ما تحول الحامي، أي البرتغال، إلى قوة تشن هجومات على المناطق المجاورة، وقد أثرت هذه "الغزوات" سلبا على الاقتصاد المغربي، فقلت الزراعة والاستقرار لصالح الحياة الرعوية والتنقل. أشار الحسن الوزان لهذا الدمار وهذا الانحطاط وأرجعهما للغزو البرتغالي من جهة وإلى القبائل العربية. وأعطى أمثلة كثيرة عل هذه الممارسات فذكر أنه لم يستطع الامتناع عن البكاء عندما رأى مدينة أنفا وقد تحولت إلى خراب بعدما هاجمها البرتغاليون. ابتداء من هذه الفترة، أصبحت البحار بالنسبة للمغاربة والمسلمين والمحيطات مرتبطة بالخطر وترمز إلى العدو المسيحي.



الرحالة إبن بطوطة



لم يعد المسلمون يفكرون في المجالات البحرية على أساس أنها مجالات هامة وحيوية بالنسبة لحياتهم اليومية كما كان الشأن أيام كل من الشريف الإدريسي والرحالة ابن بطوطة، بل صارت مصدر قلق وانشغال ولذا ابتعد السكان على السواحل واستوطنوا المناطق الداخلية خوفا على أنفسهم وعقيدتهم. وقد عبر مبعوث السلطان أحمد المنصور إلى الخليفة العثماني مراد الثالث سنة 1590 والسفير المقصود هو أبو الحسن التمكروتي، فقد رأى هذا المبعوث في البحر مصدر كل الأخطار ما أن يركبها المسلم حتى يتعرض إما للأسر أو للغرق. لقد انبهر التمكروتي بعظمة وكثرة الأسطول العثماني فقد أشار إلى كثرة الوحدات وإلى حيوية الأوراش التي كانت تصنع السفن الكثيرة في كل بقاع مدينة اصطمبول. وتوقف هذا المبعوث عند مسألة وشهرة الأساطيل الجزائرية التي كانت تدخل الرعب في نفوس المسيحيين ولاحظ أن هيبتها كانت تفوق هيبة الأساطيل التركية: "ثم دخلنا الجزائر... ومرساها عامر بالسفن ورياسها موصوفون بالشجاعة وقوة الجأش ونفوذ البصيرة في البحر يقهرون النصارى في بلادهم فهم أفضل من رياس القسطنطينية بكثيرة وأعظم هيئة وأكثر رعبا في قلوب العدو فبلادهم لذلك أفضل من جميع بلاد إفريقية وأعمر وأكثر تجارا وفضلا وأنفد أسواقا وأوجد سلعة ومتاعا حتى أنهم سمونها اصطمبول الصغرى". (التمكروتي، النفحة المسكية في السفارة التركية، مخ. خ ع، .A 3887، ص.139). من خلال ما سبق قد نتساءل عن الأسباب التي جعلت التمكروتي يتوقف مطولا عند الطاقة البحرية التي كانت تتوفر عليها أعظم سلطة إسلامية في ذلك الوقت الإمبراطورية العثمانية. فهل لجأ إلى ذلك ليبين تخلي الأتراك عن مسؤولياتهم، إذ كيف يعقل أن تكون لهؤلاء هذه الإمكانيات ويتركون السيطرة على البحر للمسيحين؟ ألا يمكن أن نرى في خوف العلماء من أمور البحر صرخة مقصودة سعى من خلالها هؤلاء إلى إيقاظ المسلمين من سباتهم المخيف لتدارك التجاوز الذي أصبح لصالح أوربا؟ لقد صار البحر الأبيض المتوسط بمثابة الفخ الذي تصطاد به القوى المسيحية المسلمين بعدما أخرجتهم من الأندلس. فكيف لا يخاف المسلمون البحر الذي أصبح أداة يسخرها العدو الكافر ضد العالم الإسلامي وقد عبر المقري عن ذلك بوضوح عندما كتب واصفا السفينة في البحر "ونحن قعود، كدود على عود... وذلم السفين ومن في قبر جوفه دفين، مع ترقب هجوم العدو، في الرواح والغدوّ، لاجتيازه على عدة من بلاد الحرب، دمر الله من فيها وأذهب بفتحها عن المسلمين الكرب! لا سيما مالطة الملعونة، التي يتحقق من خلص من معرتها أنه أمد بتأيد الهي ومعونة".
(المقري، نفح الطيب، بيروت، 1949، ج ١، ص 45).

لقد خصص السفير المغربي ابن عثمان المكناسي حيزا كبيرا من رحلته، البدر السافر لهداية المسافر إلى فكاك الأسارى من يد العدو الكافر، للكلام عن جزيرة مالطة التي كانت تحت حكم المسلمين لما فتحوا صقلية سنة 869 على يد أحمد الأغلب واستمر بها الوجود الإسلامي إلى سنة 1090 وقد استرجعها إلى المسيحية روجار الأول (1031 – 1101) وأشار ابن عثمان إلى سكان الجزيرة بقوله بأنهم "شرذمة من بني ملاقطة، مجتمعون من زبد كل قبيلة من كل أجلف... عبدة الصليب، الذين لهم الإذاية للمسلمين". قد تساءل هذا السفير عن الأسباب التي جعلت سكان مالطة يصبحون أشد أعداء الإسلام والمسلمين بعدما كانت الجزيرة تابعة للإمبراطورية الإسلامية؟ قل من يعبر البحر الأبيض المتوسط دون أن تعترضه سفنهم، لقد ساهم موقع الجزيرة الممتاز في تقوية أصحابها، أثرت تصرفات أهل الجزيرة على العلاقات الإسلامية المسيحية



وساهمت، بقدر كبير، في تراجع المبادلات بين شرق و غرب هذا البحر ،و صارت الجزيرة تجسد الهلاك و الجحيم في المخيلةالإسلامية، ولم يتردد العلماء في نعتها بكل النعوت القبيحة.

عاش أبو القاسم الزياني الفترة الممتدة ما بين القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر، و خدم ثلاث سلاطين ; سيدي محمد بن عبد الله(1757– 1790)، و المولى اليزيد (1790– 1792) والمولى سليمان(1792– 1822) واعتبر الزياني إلى جانب ابن عثمان، أهم دبلوماسي تلك الفترة فكان الأول مسؤولا عن تنشيط علاقات المغرب بالعالم العربي الإسلامي في حين اختص الثاني بعلاقات المغرب مع أوربا. بفضل المسؤوليات التي تحملها استطاع أن يزور عدة بلدان وأن يكتشف عدة حضارات وأن يكون شاهد عيان لكثير من الأحداث دون الكثير منها في رحلته المشهورة: الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا وعبر عن ذلك بقوله: "يقول العبد الفقير الجاني، أبو القاسم الزياني إني لما رمت بي الأقدار، وجلت في الأقطار، وشاهدت كثيرا من الأمصار، في البراري والبحار، ووقفت على كثير من الأخبار، واجتمعت بجملة وافرة من الأمراء الأبرار، والعلماء الأخيار... جمعت ما قيدته في رحلاتي الثلاث وما شاهدته... وجعلته رحلة واحدة وسميتها الترجمانة الكبرى" .(أبو القاسم الزياني، الترجمانة الكبرى، تحقيق عبد الكريم الفيلالي، الرباط 1967، ص 52 – 53) لقد جال هذا السفير كثيرا وحاول أن يعرف القارئ بالمؤسسات الداخلية للبلدان التي زارها فما هي التصورات التي دونها في رحلته عن المجالات البحرية؟

من خلال مؤلفات الزياني يظهر أن تصوراته لأمور البحر تنحصر في اتجاهين: الأول خرافي والثاني واقعي. يعتمد في الاتجاه الأول على الأساطير والأخبار المروية وعلى المعلومات الواردة في الكتب الدينية. ويغلب على أسلوبه في كتابة مثل هذا الاتجاه الأسلوب الخرافي. كمثال على ذلك نسوق هنا ما كتبه عن اتصال البحر الأبيض المتوسط بالمحيط الأطلسي ذكر القصة عند كلامه عن أول من عمر الأندلس "وأول من غزاها من ملوك الأجناس الإسكندر اليوناني... وحارب أهلها... واستكانوا لصولته... وشكوا إليه ما يلحقهم من ضرر البربر أهل العدوة، يدخلون إليهم من المدخل الذي هو الزقاق الآن قبل حفره... وأحضر أهل المعرفة فوزنوا الأرض التي بين البحر الأخضر والأعظم، فوجدوا البحر الأعظم يعلو على البحر الأخضر بدرجات مجمع الصناع والمهندسين وأموان يحفر الزقاق... من طرق البحر الأخضر إلى أن بلغ البحر الأعظم وقد النار للمينات فانقلع السد ودخل البحر الأعظم للزقاق... واستراح أهل الأندلس من ضرر البربر، ورجع الإسكندر من طريقه إلى المشرق" .(الزياني، الترجمانة، ص. 91– 92) وبنفس الأسلوب الخرافي قدم الزياني المحيط حيث قال "إنه البحر الكبير ويسمى المحيط وهو البحر الأعظم الذي منه مادة جميع البحار المتصلة والمنفصلة وهو بحر لا يعرف له ساحل ولا يعلم عمقه إلا اللّه تعالى وفي هذا البحر عرش إبليس لعنه اللّه، وفيه ومدائن تطفو على وجه الماء، وهي آهلى من الجن في مقابلة الربع الخراب من الأرض... وتظهر فيه الصور العجيبة والأشكال الغريبة ثم تغيب في الماء." (الزياني، الترجمانة، ص.291 – 292) .

إلى جانب هذا التصور عالج الزياني مجال البحار بنظرة غلب عليها طابع الدقة. فوصف المحيط الأطلسي، والهندي والهادي وأعطى عنها معلومات مدققة. وكان أسلوبه في كلامه عن هذا الاتجاه يتميز بحس علمي حيث كان يلجأ أحيانا إلى استعمال الخرائط والتجربة لتحديد





المواقع والطرق البحرية وحتى تقترب أكثر سوف نسوق نازلة عاشها الزياني وهو عائد من اصطمبول إلى المغرب بعدما اكترى خدمات ربان سفينة من أصل مسيحي ليوصله إلى طنجة. لكن هذا الأخير عقد صفقة مع تاجر تركي قرر على إثرها أن يحول اتجاه السفينة إلى مدينة مرسيلية عوض طنجة : "واصفقوا على ذلك حيث لم أساعدهم عليه، فبلغني ذلك، فكنت أرصدهم وكل يوم أنظر إلى الكارطة وأعرف أين محلنا، وأين بلغنا، إلى أن وصلنا المحل الذي يتوجه منه لمرسيلية ، فطلعت فوق القامرة و جلست ووقف خدامنا بسلاحهم" . (الزياني، الترجمانة ص. 129– 130) من خلال هذا الحدث يظهر أن المؤلف السفير كان يعرف استعمال الخرائط ويحدد التوجيه داخل البحر بدقة كبيرة.

وشكل إبراهيم التادلي الرباطي، المتوفي سنة١٨٩٤ ، حالة خاصة، عرف هذا العالم يتفتح فكره وبكتابته المختلفة إذ ألف في مواضيع شتى في الفقه، والتاريخ، والموسيقى، وكان أول من ألف كتابا في علوم البحر: زينة النحر بعلوم البحر الذي لا زال مخطوطا. لقد عاش التادلي مرحلة خاصة امتازت بسيطرة أوربية فعلية وكان شاهدا على عديد من الأحداث الهامة: كمؤتمر مدريد، ومحاولات الإصلاح التي تبناها السلطان الحسن الأول. أشار التادلي أنه ألف زينة النحر لينتفع به من اضطر لركوب البحر. واستعان، في تدوين المعلومات الواردة في الكتاب، بخبرة أهل العلم وأصحاب المهنة من المسلمين والنصارى. واعتبر المؤلف أنه بصدد الحديث عن علم قائم بذاته : "فحد هذا العلم، أنه علم يعرف به كيفية سير السفينة في البحر، وموضوعه السفينة، واضعه سيدنا نوح... غايته زيادة الإيمان بزيادة الآيات" . (التادلي، زينة النحر، مخ. خ. ع، د 1347، ص199) .وكان التادلي يرجع باستمرار للآيات القرآنية ذات الصلة بالبحر ليؤكد قوله. وقام بالتحريات اللازمة عن طريق طرح الأسئلة على أرباب السفن من أجل التعرف على المراكب وأنواعها وأحجامها وسرعتها. فدقق المعلومات وحدد الأخطار المحيطة بها وانتهى إلى الخلاصة التالية: "إذا جاء القدر عمى البصر ولا ينفع الحذر من قدر إلا أن استعمال الأسباب مشروع . " (التادلي، زينة النحر، ص201). وميز التادلي بين السفن التي تستعمل الرياح في سيرها، وتلك التي أصبحت تستعمل الفحم الحجري أو كما قال بالنار وهي البابورات التي تجري كالبرق، وقد انتبه إلى تفوق الجنس الإنجليزي في أمور والانضباط سواء تعلق الأمر بالأمور التقنية أو بأمور التدبير. ورغم هذه الملاحظات فإن كلام التادلي عن أمور البحر كان مشحونا بالتعجب لأن معرفته بهذه الأمور ظلت محدودة و إرادته مشلولة لأنه كان لا يرغب في تعميق معرفته و لا يؤمن بتلك التي قدمت له و نلمس ذلك من خلال الحكاية التي أوردها عن أصل مضيق جبل طارق حيث ردد القصة التي أتى بها الزياني تلك التي ترجع حفر المضيق إلى الإسكندر بسبب الشكوى التي تقدم بها أهل الأندلس ضد البربر.

فخوف العلماء من البحر جاء نتيجة التحولات الطارئة على الساحة الدولية والتي كانت تتميز بهيمنة أوربا واتخاذها للمبادرة ومحاصرتها المتزايدة للعوالم الأخرى بعدما أصبحت متحكمة في الطرق البحرية. لهذه الأسباب تطير العلماء المغاربة من البحر وأصبحوا يرون فيه مصدر كل البلايا التي تصيب المغرب. فإذا كانت مواقف العلماء وتصوراتهم قد تغيرت بحسب التحولات الظرفية فما هي المواقف التي تبنتها عامة الناس؟



البحر في المتخيل الشعبي.

قصد بمصطلح شعبي نظرة العامة التي تكون غالبية المجتمع المغربي. وتتميز هذه الفئة بجهلها وقلة درايتها. مما يجعلها، غير قادرة على فهم بعض الظواهر الطبيعية، للهروب من جهلها، تحاول العامة فهم ما استعصى عليها من هذه الظواهر عبر طريقتين: تلجأ إلى تحويل الظواهر الغير مفهومة، من مجالها الأصلي لتدمجها وتلحقها بعالم ما فوق الطبيعة ما هو رباني، أو تعمل على تبسيط الظواهر التي ترعشها لتلحقها بعالمها الساذج والبسيط. وبعبارة أخرى يحاول الإنسان الشعبي أن يحد من وقع التجريد، وكل ما هو فوق الطبيعة ليجعله في متناول إدراكه والتحكم فيه. تجسد البحار الخوف والرهبة عند العامة وتذكرها بضعف الإنسان أمام هذه القوة الهائلة والمتدفقة والسؤال الذي يبقى كطروحا هو: كيف يتمثل الإنسان الشعبي المحيطات والبحار؟ وكيف يستطيع ترويض هذه القوة التي لا تقهر ليدمجها في مخيلته ذات البعد المحدود؟

1 ـ البحر قوة لا تقهر.

هل للعامة دراية بأمور البحر؟ هل يستطيع الإنسان الشعبي أن يعطي فكرة عن حدود البحار وعمقها؟ حاولنا طرح هذا النوع من الأسئلة على بعض الناس، فكانت أجوبتهم غير واضحة وغير مضبوطة. منهم من كان يربط البحار ببعض الأولياء، ومنهم من ألصقها ببعض المدن. فتحدثوا عن بحر مولاي بوسلهام، وبحر مولاي بوشعيب، وبحر مولاي عبد الله. وقالوا بحر طنجة، وبحر سلا، وبحر أصيلا، وبحر أگادير. والملاحظ أن العامة لا تشعر بالطمأنينة أمام البحر، إذ كيف ترتاح إلى قوة الماء في حين أن الإنسان أصله من تراب؟ تهاب البحر لأنه يفرض عليها أسلوب عيش مخالف ومغاير لما تعودته على اليابسة. هذا الإحساس بالعجز، والضعف، أمام هذه القوة هو الذي جعل العامة تلجأ إلى تحويل هذه القوة وتردها إلى قوة خالقة، قوة ربانية لا بشرية.
وحتى تقرب العامة هذه القوة من إدراكها البسيط استعملت مفهوم البركة وأعطت للأولياء قوة خارقة وقدرات تذكر بتلك التي كانت تعطى للآلهة القديمة. فكم من والي كان يحلق في السماء وكم من آخر كان يمشي فوق الماء. فالصورة التي كانت تعطى للوالي هي ابتكار لجأت إليه العامة من أجل التحقيق من حدة جهلها وإرساء حاجز بين الموت والحياة بغية احترام بعض المقدسات المتواترة. من بين الكتب التي اهتمت بحياة الأولياء هو كتاب: التشوف إلى رجال التصوف لأبي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي المعروف بابن الزيات. اهتم هذا المؤلف بحياة أولياء المناطق الجنوبية من القرن الخامس إلى القرن السابع الهجري، وعدد الأولياء المترجم لهم مائتان وسبعون من بينهم أولياء ارتبطت حياتهم بالبحر.
من بين هؤلاء الأولياء نذكر أبا بكر الورياغلي المعلم من أهل سلا من بركاته المشي على الماء.
اعتمد ابن الزيات على الرواية الشفوية بدليل قوله "حدثني علي بن عبد الرحمن قال: حدثني مفضل الدباغ... قال: قام عبد الله بن صالح ليلة، فتبعته حتى أتى باب الدرب، فانفتح له فوجد أبا يحيى المعلم ينتظره فقال له: ما حسبك؟ فقال له حسبي عذر، فرأيت شخصا واقفا في البحر ينتظره فدخلا إليه وغابا ساعة ثم رجعا" (ابن الزيات، التشوف، الدار البيضاء، 1984، ص184). وتحدث ابن الزيات عن صاحب تيط أبو عبد الله محمد بن أمغار الصنهاجي وبين أنه كان يمشي على الماء.



بالإضافة إلى هذه القدرة كان الأولياء يمشون فوق الأنهار وباستطاعتهم إبطال مفعول رياح الإعصارات التي تهدد المسافرين. فقوة البحار المهولة كانت تخيف العامة التي تلجأ إلى بركة الأولياء لتهدءة غضب البحار وترويضها لأن الأولياء يجسدون في ذهن العامة الإرادة الربانية وما بركتهم إلا تلك القوة التي وهبها الله لهم قصد التحكم في الظواهر التي يصعب على عامة الناس إدراكها.

2 ـ البحر مجال السخاء والعطاء.

ركز التراث الديني على البحر كمنقذ للبشرية. أغاث نوح عليه السلام البشرية من الطوفان ويعتبر الحدث مؤسس علم البحار. وقد أكد القرآن في عدة آيات على أهمية البحر وعلى الخيرات التي وهبها الله للإنسان فيه. وحث القرآن المسلمين على استغلال هذه الخيرات وعندما يركب المسلم البحر فإنه يتلو آية "وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم" (سورة هود، آية ٤١) . ويلجأ الإنسان العامي إلى الاحتماء من غضب البحر وأهواله بذكره لحزب البحر للإمام الشادلي نصت عدة آيات من سورة المائدة على الصيد "أحل لكم صيد البحر وطعامه ومتاعا لكم وللسيارة" (المائدة، 97).

يبدو البحث في تاريخ المغرب عموما، وفي التاريخ البحري على الخصوص، عملا صعبا بسبب ندرة الوثائق لأن الدولة لا تتوفر على مصالح خاصة بالأرشيف الإداري بل كان كل إطار يحتفظ بالسجلات التي كان يشتغل بها. إلا أن هذا الخصاص لا يمنع من رصد ودراسة بعض الأنشطة البحرية، فالشابل مثلا كان أساس ودعامة لمبادلات مكثفة بين الصيادين المغاربة والتجار الأوربيين الذين كانوا يفدون على المغرب لأجل هذه الغاية من مناطق أوربية مختلفة بل كانت هذه المبادلات جد مهمة إلى درجة أنها حددت ووجهت بعض القرارات السياسية الحاسمة.
خصص الحسن الوزاني لصيد الشابل مكانة هامة عند كلامه عن مدينة أزمور، وأشار أن مداخيل المدينة من هذا الصيد كانت تقدر بـ 6000 إلى 7000 مثقال، ولاحظ أن هذه الأهمية جعلت الملك البرتغالي، بإيعاز من تجاره يقرر احتلال أزمور. وفي نفس السياق، توقف الحسن الوزان مطولا عند الأنشطة البحرية في ميناء باديس، فاعتبر البحر المجاور للميناء غني بسمك السردين. وكان صيد هذه الأسماك أساس معاش السكان إذ كانوا يملحونه بعد صيده ثم يخزنونه قبل تسويقه في المناطق الداخلية المجاورة لباديس. اشتهر هذا الميناء بصناعة السفن وبالتجارة. وقد أدمج السكان البحر في حياتهم إلى درجة أنهم كانوا يخرجون أيام الربيع والصيف إلى النزهة في قوارب معدة لذلك. واشتهرت مدينة العرائش كذلك بتعاطيها للصيد البحري وبتمليح الأسماك من أجل المحافظة عليها لمدة أطول. وأشار الحسن الوزان إلى صناعة الفحم بهذه المدينة التي اشتهرت بها إلى درجة أصبح يقال: "هذه السفينة القادمة تشبه سفن مدينة العرائش فأشرعتها مصنوعة من القطن وحمولتها مكونة من الفحم".

احتلت موانئ مغربية أخرى، كسلا والرباط، مكانة مرموقة في خريطة المبادلات الدولية حيث هذه الموانئ تستقبل العديد من السفن الأوربية ـ خصوصا السفن الإيطالية ـ وكانت السفن تصنع بباب لمريسة بسلا، وكان هذا الميناء يعج بحضور مكثف للتجار الأجانب وقد اتخذ بعضهم مخازن في فناديق سلا بل ذهب البعض إلى أبعد من ذلك فاختار الإقامة بسلا وقد ذكر الحسن الوزان إسم أحد أعيان مدينة جنوا طوماسو دي ماريا الذي قضى حوالي ثلاثين سنة في هذه المدينة حيث بقي إلى أن مات. لقد احتل الصيد عموما وصيد الشابل على الخصوص مكانة هامة





في حياة سلا إلى درجة جعلت المخزن يتدخل من أجل إعادة تنظيم هذا النشاط والتحكم في مداخيله كما توضح ذلك الظهائر المخزنية ففي ظهير مؤرخ في أول صفر 1124 نقرأ على لسان المولى إسماعيل "حبسنا بحول الله وقوته وشامل يمنه وبركته جميع الوادي المشرع المعهود لصيد الحوت الشابل بعدوة سلا حرسها الله على الماء لدى تفضل الله علينا بإجرائه إلى المسجد الجامع من الحضرة المذكورة ليصرف ما يستفاد من الواد المذكور في إصلاح مجاري الماء المذكور وقنواته". واستمرت تدخلات المخزن في التحكم في مداخيل هذا الصيد وتوزيعه على مدينتي الرباط وسلا. من خلال ما سبق يظهر أن مواقف العامة من البحر كانت تسير في اتجاهين: من جهة، كانت تعتبر البحر مصدر حياتها تستمد معاشها من خيراته. ومن جهة أخرى، كانت مخيلتها لا تتردد في اعتباره مجالا مقدسا تعود إليه كلما دعتها الضرورة إلى ذلك من أجل تخفيف آلامها أو حل المشاكل المستعصية عليها.

3 ـ البحر مصدر الخصوبة مصدر الحياة.

تصنع مياه البحر المالحة المعجزات في ذهن الإنسان الشعبي، توجد في الموانئ المغربية عادات وتقاليد ذات ارتباط بالبحر ومن بينها نذكر الحفل الذي يقام في صباح اليوم الثالث بعد الزفاف ويتميز هذا الحفل في قيام العروسين ببرش السمك وتعرف هذه العملية بـ "حفل تكرات الحوت"، لأن سكان المنطقة يرون فيها رمزا للخير وللسعادة للعروسين، ويسود الاعتقاد كذلك أن من رأى السمك في حلمه فسوف يغتنى. فهذه العادات التي ارتبطت في الأصل بالمناطق الساحلية قد انتشرت في المناطق الداخلية، فمياه البحر تتوفر على قدرات هائلة تشفي من أمراض الجلد، والعقم، حتى نوضح هذه الاعتقادات الشعبية في مياه البحر سنحاول الاستعانة بعمل ميداني قمنا به عند زيارتنا لسيدي موسى الدكالي على ساحل سلا وللاعائشة البحرية بالقرب من أزمور.

يوجد ضريح سيدي موسى الدكالي خارج سور سلا، وهو من أكبر أولياء المدينة خصص له ابن الزيات في كتاب التشوف إلى رجال التصوف أكثر من صفحتين. كان زاهدا في الدنيا متفرغا للزهد والصلاح. تعتقد العامة أن من بركات هذا الولي معالجة الأمراض العقلية، عقم النساء، ويعتبر الأب الروحي لصيادي سلا. تعالج النساء في مغارة هذا الولي التي تبعد عن ضريحه ببضع مترات، وتتلخص عملية الزيارة على النحو التالي: تجلس المرأة على صخرة داخل المغارة المفتوحة على البحر وتسمى هذه الصخرة "بالگصعة" بمساعدة المقدمة تجعل المريضة الحناء الممزوجة بماء البحر، وبعد ذلك تغسل جسدها بماء مأخوذ من سبع أمواج متتالية. وبعد انتهائها من العملية تذرح ديكا ريشه أبيض أو أسود ثم ترميه في البحر، نفس العملية تقوم بها الفتيات الراغبات في الزواج. تكون الهدايا في الزيارة الأولى بسيطة وهي عبارة (عن شموع أو بعض النقود أو ديك) لكن، و في حالة ما إذا تحقق لهن الأمل فإنهن يحضرن هدايا أهم (ثور، نقود أكثر، أغطية للوالي) وإذا لم يحققن المراد فيمكنهن إعادة التجربة مرات أخرى إذا أردن.

وأما للاعائشة البحرية فالمعلومات المتوفرة عنها محدودة تذكر الروايات أنها امرأة صالحة جاءت من بغداد قصد التعرف على مولاي بوشعيب الرداد، وتوفيت بالقرب من مصب أم الربيع حيث دفنت واكتسبت شهرة كبيرة بسبب قدرتها على معالجة المرأة العقيم. فيما يخص الطقوس المتبعة في العلاج فهي نفس الطقوس التي ذكرناها عند حديثنا عن والي سلا سيدي موسى الدكالي.



البحر في المتخيل المخزني.

صعب تحديد مفهوم المخزن لأن مضامين التعريف تتغير بتغير زوايا الانطلاق، فالتعريف الذي يعطيه الفيلسوف يختلف عن ذلك الذي يقترحه عالم الاجتماع أو عالم السياسية لنبسط المفهوم نقول أن كلمة المخزن تحيل على الحكومة في المغرب وترمز إلى استمرارية الدولة فيه. انطلاقا من هذا التحديد نجد أنفسنا داخل الجهاز الإداري الذي يفترض وجود برنامج سياسي، اقتصادي، اجتماعي وثقافي. هل بالإمكان، والحالة هذه، أن نتحدث عن متخيل مخزني؟ مع العلم أن المخزن يجسد ما هو رسمي وهذا الأخير يهتم في سياسته بالأساس بالفعل وبالملموس لا بالمتخيل.

لتجاوز هذه العقبة سوف ننطلق من مسلمة مفادها أن المخزن هو مجرد انعكاس للمجتمع، وبعبارة أخرى فإن المؤسسات التي تنظم الحياة في المجتمع تسيرها عناصر منبثقة من مختلف الفآت الاجتماعية المكونة له: فالعلماء والفقهاء والكتاب ينتمون للخاصة والتي تعطي المخزن الأطر التي يحتاج إليها، وأما الأعمال الأخرى فإنها تكون مكولة للعامة. فالبيعة توحي بالتعاقد الحاصل بين الملك والرعية كتابة وتجسد التلاحم الحاصل بين الطرفين بين القمة والقاعدة وتهم كل مكونات المجتمع المغربي غنيه وفقيره عالمه وأميه.

على غرار المجتمع الذي ينتمي إليه، يعيش المخزن تحولات وتغيرات تمليها عليه الأوضاع والظرفيات إلا أنه يبقى مندمجا في مجتمعه يفرح ويهتز لأفراحه أو يحزن لأحزانه. ومن هنا، تعترضنا صعوبة تحديد مضمون المتخيل المخزني: كيف تتمثل هذه المؤسسة داخل الإطار الذي تتحرك فيه، البحر؟ وكيف استطاع المخزن أن يدمج تصوراته للبحر في طموحاته السياسية؟

2 ـ البحر في المتخيل الأمني المخزني.

بفضل انفتاحه على البحر الأبيض المتوسط في الشمال، وعلى المحيط الأطلسي في الغرب كان المغرب يتمتع بموقع جغرافي متميز، اعتماداً على هذه الوضعية الاستراتيجية الممتازة سعى المغرب الرسمي على الدوام إلى السيطرة على مجاله البحري حتى يجعله فضاء تواصل وتبادل بين الحضارة المغربية والحضارات الأخرى. بسبب موقعه المتميز هذا، كان المغرب هدفا لأطماع توسعية منذ التاريخ القديم: نذكر على سبيل المثال الفينيقيين، والقرطاجيين، والرومان، والوندال، والإيبيرين والفرنسيين وهكذا كان البحر مصدر كل الأخطار الخارجية التي هددت المغرب ولهذه الأسباب كان يجسد في المتخيل الرسمي أول سور أمني يحمي المغرب من الهجومات الأجنبية.

لقد بالغت الكتابة اليونانية في الأوصاف التي تركتها عن السواحل المغربية التي كانت تقع جنوب مغارات هرقل بحيث قدمت المجال والسكان في صور خيالية. وعمل الفينيقيون والقرطاجيون على نسج حكايات غريبة عن المغرب بهدف إبعاد منافسيهم اليونانيين. ما زالت





بعض هذه الأساطير في أعمال الصاعر هومير الذي قدم المغرب كمسرح تدور فيه أحداث بعض الآلهة، وبعض الأبطال. فالاطلس وهو أحد أولاد زوس كان ملكا على المغرب حوله أحد الآلهة إلى جبال لأنه لم يحسن ضيافته. وفي المغرب أنجز هرقل عمله المتمثل في تفريق إفريقيا عن أوربا وخلق مضيق جبل طارق. والبطل أوليس، بعدما نجى من كوارث كثيرة لجأ إلى طنجة حيث استقبلته الآلهة كلبسو في إحدى المغارات. تمثل هذه الخرافات الحسرة التي كان يشعر بها الإغريق لأنهم لم يتمكنوا من مزاحمة منافسيهم في المغرب حيث كانت تصل المعادن وبالخصوص الذهب.

وتعتبر رحلة حانون أهم مصدر لما يتوفر عليه من معلومات دقيقة ومفصلة عن السواحل المغربية التي زارها هذا الرحالة، وأعطى سترابون من جهته أوصاف مهمة عن سكان المغرب واعتبرهم من أصل ليبي ولاحظ بأن بلادهم كانت تتوفر على خيرات كثيرة وأنها كانت مفصولة عن إسبانيا بواسطة المضيق. وأشار سترابون أن المغاربة، رغم الإمكانات المتوفرة في بلدهم فإن نمط عيشهم يغلب عليه النشاط الرعوي.

فالبحر الذي شكل خطورة دائمة خلال التاريخ القديم، قد عرف تحولا عميقا ارتبط هذا التحول بمجيء العنصر العربي من المشرق، إذ استطاعت هذه العناصر، بتعاون مع البربر، أن تستعمل المجال البحري كقاعدة للقيام بفتوحات إسلامية في الأندلس وكان المغرب القاعدة الخلفية التي تنطلق منها هذه الحملات المتجهة صوب هذه المنقطة تحت قيادة طريف البربري. تقدمت الجيوش الإسلامية نحو الأندلس لتستولي على بعض المناطق منها سنة 710، ولا زالت مدينة طريفة تحمل إلى اليوم إسم هذا القائد. واستمرت هذه العمليات على يد قائد بربري آخر هو طارق ابن زياد، فاستطاع هذا الأخير، أن يكمل ما بدأه طريف حيث مهد الأندلس بكاملها إلى حدود مدريد بعدما دخلت الجيوش الإسلامية إلى كبريات مدنها: كقرطبة وإشبيلية وغرناطة ومالقة، ولتخليد إسم هذا القائد في الذاكرة الإسلامية فقد أطلق إسمه على الصخرة أو الجبل الواقع وسط مضيق الذي صار يحمل إسمه منذ ذلك الحين إنه جبل طارق أو مضيق جبل طارق. وشكل الوصول المغربي إلى الأندلس منعطفا هاما في تاريخ البحر المغربي. ويطرح وصولهم هذا، عدة تساؤلات: كيف عبر المغاربة مضيق جبل طارق؟ من أين أتتهم السفن التي حملتهم إلى الأندلس؟ أين صنعت وما هي أنواعها؟ على العموم فقد شكل هذا العبور بداية السيطرة المغربية على البحر الأبيض المتوسط ودشن منطلق الوعي الرسمي بأهمية البحر الأساسية ومكانية استعماله كورقة سياسية.
وفي هذا السياق، حاول الادارسة الاهتمام ببلدان المغرب في علاقاتها مع البحر الأبيض المتوسط، واهتمت إمارة بني صالح الريفيّة بالأنشطة البحرية إذ جعلت من مدينة نكور ميناء نشيطا ومزدهرا ودعمت وشجعت المبادلات التجارية فيما بين مناطق المغرب المتوسطية والأندلس. وذهب المرابطون أبعد من هذا لأنهم حاولوا مراقبة البحر الأبيض المتوسط عن طريق تأسيسهم لأسطول بحري متكون من ثلاثين وحده حربية كانت تجوب هذا البحر وتعود لقواعده في بعض المدن الأندلسية كالميريا وقادس. وعين المرابطون القائد عبد الله بن ميمون كأمرال على هذا الأسطول الذي كان يقوم بخرجات في البحر الأبيض يصل فيها إلى السواحل الإيطالية والفرنسية وإلى جزر الباليار. وذهب الموحدون أبعد إذ عززوا الوجود المغربي في الغرب الإسلامي من أجل تقوية الحماية والأمن لمسلمي المنطقة. وكان الأسطول الموحدي يتكون من أربع مائة وحدة حربية



موزعة على الشكل التالي : مائة وحدة كانت مسؤولة على حماية السواحل الأطلنتيكية المغربية، ومائة أخرى لحماية السواحل المتوسطية، ومائة لحماية السواحل الجزائرية والتونسية ومائة أخيرة كانت تتحرك بالقرب من إسبانيا لحماية السواحل الأندلسية. وأسند الموحدون قيادة هذه الأساطيل لأطر مغربية وقد اكتسبت هذه الوحدات شهرة وقوة تجاوزت الحدود المغربية ولعل طلب المساعدة الذي تقدم به صلاح الدين الأيوبي للموحدين ليدعموه قصد استرجاع القدس من يد الصليبين سنة 1190 خير دليل على المكانة التي أصبح يحظى بها الأسطول المغربي خلال هذه الفترة. كان المخزن المغربي لا يرى في البحر مجرد وسيلة لدعم وتزكية مصالح المسلمين في البحر الأبيض المتوسط بل كان يستخدم هذا المجال كأداة لضمان وتقوية أمن المسلمين في المنطقة الغربية من البحر الأبيض والغرب الإسلامي بمفهومه الواسع.

إلا أن هذه الوضعية ستتغير أيام المرينيين حيث تراجعت سياستهم البحرية ودخل المغربة زمنهم مرحلة انكماش بعدما كان متخذا للمبادرة في البحر الأبيض المتوسط أيام الموحدين كما رأينا. وصار الخطر المسيحي في تزايد وأصبحت السواحل المغربية مهددة في أمنها لأنها أصبحت عرضة للهجومات المسيحية المتكررة. وهذا أمر ألفونس الحكيم جيوشه بالهجوم على المغرب، واستطاعت الجيوش القشتالية أن تباغت سلا وأن تستولي عليها سنة 1260 وتسبب هذا الهجوم في زعزعة الذهنية المغربية ودفع بأبي يوسف المريني إلى دعم وتشجيع صناعة السفن في دار الصناعة بسلا وكانت هذه الأوراش تستعمل خشب غابة المعمورة. ولجأ هذا السلطان المريني إلى جمع كل وحدات أسطوله البحري سنة 1279 في سلا، رغبة منه في ردع التحرشات المسيحية على السواحل المغربية، وأرسل سنة 1280 وحدات بحرية إلى جزر الكناريا قصد الاستكشاف والاستخبار. واتخذ بعض الموانئ المعروفة كطنجة، والعرائش وسلا محطات عسكرية لضمان أمن السواحل، واستعمل الثلاثين وحدة بحرية كانت مرابطة في ميناء سلا في المعركة التي قادها السلطان المريني أبو يوسف سنة 1285 ضد القشتالين.

لقد ازداد الضغط الإيبيري على المغرب ابتداء من النصف الثاني للقرن الرابع عشر خصوصا بعد وفاة أبي عنان 1358. وشكل احتلال سبتة عام 1415 الضربة القاضية، لأن الحدث كان بمثابة وشمة عار في جبين المرينيين، وزعزعة قوية للذهنية المغربية التي تعودت التعامل مع الإيبيريين كتجار ولم تكن مستعدة لقبول وجودهم الفعلي فوق التراث المغربي. وقد ساهم هذا الوجود المسيحي على الساحل المغربي في خنق اقتصاد البلاد وأدى إلى تحولات سياسية انتهت بقيام دولة الأشراف كما هو معلوم.

كان السعديون على وعي بتفوق المسيحيين في المجال البحري من أجل معاكسة ومقاومة الوجود البرتغالي على السواحل تبنوا في سياستهم استراتيجية الجهاد، وطبقوا سياسة المضايقة والمحاصرة للثغور. وسعوا إلى الاستفادة من تجارة التهريب التي كان ينهجها التجار الإنجليز لمضايقة الاحتكار الإيبيري وعن طريق هؤلاء حصل الأشراق على الأسلحة النارية. وبفضل هذا العتاد والحصار، تمكن الأمراء السعديون من التفاوض مع البرتغاليين من موقع قوة وأرغموا هؤلاء على الانسحاب من الثغور المغربية خصوصا أكدير، أزمور، أسفي وأصيلا.

بعد استرجاع محمد الشيخ لفاس سنة 1554، قرر تعزيز الأسطول المغربي. ويعتبر عبد الملك السعدي السلطان الذي فهم أن قوة أوربا مرتبطة بأساطيلها، وعرف أن قوة المغرب لن تكتمل إلا



بتأسيسه لأسطول يكون منظما على شاكلة أساطيل أوربا والعالم العثماني، وأن حماية السواحل المغربية لن تتأتى في غياب وجود هذا الأسطول. إن التفاوت بين الضفة الشمالية والضفة الجنوبية في هذه الضفة أو في تلك .

حتى يتسنى للمغاربة التقليص من هذا التجاوز، لجؤوا إلى تنشيط القرصنة. لقد وجد المورسكيون في هذه العمليات الفرصة السانحة للانتقام من إسبانيا التي طردتهم شر طرد، لكن فكرة الانتقام، لا تقنع لذا، وجب الوقوف عند التجاوز البين فيما بين الضفة الشمالية والضفة الجنوبية إذ أصبح ميزان القوى لصالح أوربا فصارت تفرض شروطها وقوانينها وأصبحت أساطيلها تجوب البحار والمحيطات مهيمنة على الطرق والمبادلات ومن ثم يظهر أن القرصنة الإسلامية كانت بمثابة رد فعل طبيعي ضد الاختناق الاقتصادي الذي فرضته أوربا على العوالم الأخرى. لكن هذا لايعني أن القرصنة ظاهرة إسلامية فقط، على عكس ما دونته الكتابة الأوربية، فالقرصنة نشاط ارتبط بكل المناطق، وبكل الأديان والحضارات لأنه القرصنة كانت ذات بعد عالمي، داخل المدينة الواحدة كنا نجد قراصنة ينتمون لبلدان وديانات مختلفة، من أجل هذا، من حقنا أن نتساءل عن الأسباب التي جعلت الأوربيين يربطون القرصنة بالمسلمين عموما وبالمغاربة على الخصوص؟ ألا يحمل هذا الاتهام في طياته نوايا سياسية؟ ألا يهدف إلى تهميش قضايا وأسئلة أخرى أهم مما هو مطروح؟

لجأ المخزن المغربي إلى استعمال القرصنة كأداة لتحقيق أهداف سياسية. وظف السلاطين تحركات القراصنة للضغط على الدول الأوربية وحملها على تجهيز العساكر المخزنية وأساطيله بالأسلحة والعتاد. تزخر الأرشيفات الداخلية والخارجية بوثائق تبين الطرق التي كان يستعملها المولى إسماعيل لحمل الأوربيين على عقد معاهدات الصلح تكون موجهة لخدمة مصالحه الأمنية الداخلية بالأساس. ونهج محمد بن عبد الله (1790 – 1757) نفس النهج حيث جعل من القرصنة مؤسسة تابعة للمخزن واستعملها لقعد معاهدات مع البلدان الأوربية على أسس جديدة: عقد معاهدات الصلح وتشجيع التجارة مع هذه البلدان، إلا أن طموحات هذا السلطان لم تنجح لأنها اصطدمت بنوايا الأوربيين السيئة لأنهم لم يكونوا متحمسين لدعم وتشجيع سياسة سيدي محمد بن عبد الله لأن همهم الأساسي، كان يتجسد في الدفاع عن مصالحهم وصيانتها على حساب مصالح المغرب. تبين الوثائق المحلية والأجنبية إرادة محمد بن عبد الله الإصلاحية والذي كان يعتمد كثيرا على الأوربيين بغية تحقيقها في المغرب. لكن، عوض دعمهم له عملوا على إفشال محاولاته. وتزخر دور الوثائق الأوربية بتقارير مفصلة عن الأسطول المغربي المرابط في الموانئ. كان الجواسيس يمدون حكوماتهم بتفاصيل دقيقة عن السفن، وعن الأسلحة، وعن الرواس، وعن عدد البحارة وعن أصلهم وتكوينهم وعن تحركات هذا الأسطول. وكانت السفن الأوربية تلاحق السفن المغربية وتطاردها، وتستعمل صخرة جبل طارق هي كقاعدة تنطلق منها الأساطيل الأوربية لملاحقة السفن المغربية كما توضح ذلك التقارير والشهادات المتوفرة لدينا.

لقد نجحت الدول الأوربية في محاصرة الطموحات البحرية المغربية. إذ قرر المولى سليمان (1722–1792) الانكماش والتزم بإنهاء حركة القرصنة تحت ضغط القوى الأوربية التي ازدادت طيلة القرن التاسع عشر. واستطاعت أنكلترا أن تحصل على امتيازات بفضل معاهدة 1856 لعل أهم هذه الامتيازات مراقبتها للموانئ المغربية. فمنذ هذه المعاهدة فقد المخزن كل سيطرته على





الملاحة التي صارت بيد الأوربيين في انتظار عقد الحماية سنة 30 مارس 1912 والذي سيجعل المغرب كله تحت تصرف هذه القوى الاستعمارية.

بعد الاستقلال، أعاد جلالة الملك الحسن الثاني، الطموحات البحرية المندثرة وقرر أن يعطي للمغرب مكانته البحرية الملائمة عن طريق خلق أسطول تجاري يكون في مستوى المؤهلات التي تجود بها مياه المغرب. واستطاع هذا القائد أن يؤسس لأول مرة، ما عجز عنه من سبقه: الارتباط والتداخل فيما بين التجارة الخارجية والأسطول التجاري المغربي.

2 ـ البحر في المتخيل الاقتصادي المخزني.

إننا على وعي تام بالصعوبات التي تطرحها معالجة هذا الموضوع الشاسع والشائك. فالحقل الاقتصادي يهتم بالصيد لدى الإنسان البدائي في مغارة تمارة أو مغارة سيدي عبد الرحمن كما يحاول دراسة وتتبع التشعبات والصعوبات التي يواجهها المغرب والمغاربة في مفاوضاتهم اليوم مع دول أوربا ـ السائرة إلى الوحدة ـ في مسألة الصيد البحري. من أجل مقاربة هذا الموضوع لجأنا إلى عملية الاختيار التي تعني بالدرجة الأولى الإقصاء و سوف نقف عند أمثلة نعتبرها نماذج معبرة ويتعلق الأمر بالوقوف عند سياسة أحمد المنصور الذهبي (1578 ـ1603) ومشروع سيدي محمد بن عبد الله (1757–1790) وتأسيسه لميناء الصويرة (1767) التي تجسد إرادة هذا السلطان الانفتاح على المحيط الأطلسي قصد المشاركة في التجارة الدولية. وتظهر هذه النماذج أن التجارة الخارجية كانت محتكرة من طرف المخزن لأنه كان يرى في تلك العملية الشرط الأساسي لضمان الاستقرار الداخلي.

وصل الأشراف السعديين إلى الحكم بفضل التجارة البحرية وباعتمادهم على المبادلات التجارية المكثفة التي كانت تتم فيما بين الأمراء من جهتهم عمل البرتغاليون والإسبانيون كل ما في وسعهم لإبعاد المغاربة عن التجارة البحرية وحاولوا منع المغرب من اقتناء اللوازم الضرورية لصناعة السفن. توجد وثائق كثيرة في المصادر الأصلية لتاريخ المغرب توضح الممارسات التي كانت تلجأ إليها البرتغال لمنع المغرب من ربط أي اتصال مع دول أوربية منافسة لمصالحها كإنكلترا وفرنسا. ولم تتردد السلطات البرتغالية في سجن القنصل الفرنسي سنة 1533 متهمة إياه بتهريب الأسلحة النارية وبيعها للأمراء السعديين. وكانت البرتغال تحتمي دائما بتحريم البابا لبيع الأسلحة للمسلمين. بالرغم من استعانة الإيبيريين بالكنيسة فإنهم عجزوا عن إيقاف أنشطة البلدان المنافسة لهم لأن هذه الأخيرة كانت تلجأ إلى كل السبل لضرب الاحتكار الذي كانت تفرضه كل من إسبانيا والبرتغال بدعم من البابا. من أجل تجاوز الحراسة الإيبيرية كان التجار الفرنسيون والإنجليز يتعاملون مع المغاربة في الموانئ الصغيرة التي لا تخضع للإيبيريين.

لقد أدرك الأشراف السعديين أن توحيد المغرب وهزم الإيبيريين لم تتحقق إلا باقتناء الأسلحة النارية والعتاد عن طريق التبادل التجاري مع البلدان التي تبنت الإصلاح الديني : إنكلترا أولا ثم هولندا فيما بعد. لم يأت انتصار السعديين صدفة أو بالمقاومة الشعبية وحدها للوجود المسيحي بل حققوا الانتصار لأن حركتهم انطلقت من منطقة سوس التي كانت تزخر بإمكانيات اقتصادية هامة سواء تعلق الأمر بالفلاحة أو بالمبادلات التجارية التي كانت تتم بين المنطقة وبلدان أوربية عديدة. وبفضل هذه الإمكانيات تمكن المخزن السعدي من محاصرة الثغور وتحريرها من يد



البرتغاليين ابتداء من سنة 1541 ، كأكدير، وأزمور وأصيلا كما وفقوا في تقوية وجودهم على الساحة الداخلية ضد الوطاسيين.

ومن أبرز الملوك السعديين أحمد بن محمد الشيخ الذي اتخذ لقب المنصور في انتصارعلى البرتغاليين في معركة وادي المخازن، ولقب كذلك بالذهبي بعدما احتلت جيوشه منبع التبر: السودان. وبفضل هذين الحدثين دخل أحمد المنصور كفاعل سياسي في العلاقات الدولية لهذا العصر، وفطن من جهة أخرى إلى أهمية البحر كأداة سياسية قد تستعمل لتعزيز الوجود المغربي في البحر الأبيض المتوسط وفي المحيط الأطلسي بل يمكن استخدام هذا المجال لتوطيد الدولة ومؤسساتها في الداخل، ولتحقيق هذه الأهداف، لجأ أحمد المنصور إلى اعتماد سياسة الاحتكار المخزني للتجارة وكان يستعمل هذا الاحتكار لاقتناء الأسلحة. أعطت معركة وادي المخازن إشعاعا للمغرب الذي أصبح قبلة التجار والوسطاء. وكان المغرب يصدر لأوربا السكر، ملح البارود، التمر، الزرابي. وكان أحمد المنصور متحكما في التجارة الخارجية حتى يبقى بعيدا ومستقلا عن المجتمع. وكان البحر يضمن لهذا السلطان الأسلحة ومداخيل بيت المال وهذان العنصران هما الأساس من أجل المحافظة على السلطة. لعل طموحات وأحلام هذا السلطان قد انتقلت من بعده إلى ملوك اعتبروه قدوة الحكام .

كان سيدي محمد بن عبد الله يعتبر أحمد المنصور أستاذه وقدوته، وحاول تقليده في أمور كثيرة. لقد أنشا هذا الأمير في جو الفتن والشدائد التي تلت وفاة جده المولى إسماعيل، واستمر الهرج فعمت المحن في البلاد لمدة ثلاثين سنة (1727 –1757) . واستبد العبيد خلالها بالأمور وهدوا أركان الدولة وكان لهم التصرف المطلق وعبر محمد بن عبد الله عن هذه الشدائد بقوله "اعلم أن هذا الوقت وقت صعب كثير فيه الظلمة" . حظيت شخصية هذا السلطان بالاهتمام الكبير سواء في الاسطوغرافية المغربية أو الأجنبية. وألحت هذه المؤلفات على المهارات الكبيرة التي كان يتوفر عليها هذا الأمير وقد استعمل هذه الكفاءات لإخراج المغرب من الأزمة ولبناء وتشييد قواعد سليمة قادرة على توجيه المغاربة نحو الحداثة والتنمية. ولم يتردد بعض السفراء في تشبيه السلطان بالكبار والعظماء. ولو عاش هذا الأمير- يقول البارون شخونينخ - في ظروف عادية لجعل المغرب دولة عظمى. ولاحظ الضعيف أن سيدي محمد بن عبد الله لم يكن مجرد رجل سياسي فقط بل كان كذلك من المسيرين الكبار. عرف محمد بن عبد الله كيف يتعايش مع الأحداث، وكانت تجربته بأسفي هامة لأنها مكنته من معرفة الرواج التجاري وجعلته يحتك بالتجار ويتعرف من الداخل على منطق التجارة الخارجية. وفهم أن إخراج المغرب من الأزمة السياسية ومن الجمود الاقتصادي يحتم عليه الاهتمام بالتجارة وبدعمها. ولهذا اقترب من أهل الذمة وحاول استمالتهم إلى مشروعه كما عمل على فهم الطرق التي كان تستعمل لتقوية هذا القطاع الحيوي. وحاول أن يجعل من التجارة الخارجية القطاع الأساسي فشجع التجارة والتجار لأنه كان مقتنعا بأن قطاع التجارة سيمكنه من اتخاذ المسافة عن المجتمع وسيعطيه الوسائل اللازمة لتحقيق مشروعه. وقد انتبه الرحالة شخونينخ إلى أهمية التجارة في دعم خطط التنمية وإدخال الإصلاحات. ولأجل هذا لجأ هذا السلطان إلى سياسة الاحتكار وربط التجار بشخصه فأصبحوا يعرفون بتجار السلطان .



ويشكل تشييد ميناء الصويرة التجسيد الكامل لمشروع السلطان الأطلنتييكي. قد نتساءل عن الأسباب التي جعلته يفضل ويقرر خلق ميناء جديد عوض تجهيز وإصلاح واحد من الموانئ الموجودة؟ لقد كان يعرف جيدا آسفي، والرباط وسلا وفتح البريجة ومع ذلك آثر بناء الصويرة: فهل أراد تجنب أخطاء تقنية، وعراقيل طبيعية، كما أشار إلى ذلك غير واحد من كتابه؟ أم أنه أراد أن يجعل من الصويرة الميناء المركزي قصد تهميش حيوية ميناء أكدير الذي كان يتعامل مع الأجانب وتصعب مراقبته لبعده عن العاصمة. لقد شكلت الصويرة رمزا لانفتاح المغرب الرسمي على العالم الخارجي، وردد السفراء والقناصل إرادة محمد بن عبد الله المتسامحة والمتفتحة. فشاعت أخباره عبر الآفاق وتحسنت صورة المغرب فتسابقت الدول وتهافتت في البحث عن الصلح والمهادنة. وان هذا السلطان يسهر على حماية هذه السمعة، فأكثر من المراسلات ومن المعاهدات، وجعل من الصويرة معلمة رسمية، واستعملها لترسيخ صورة المغرب الجديد والملك الجديد: مغرب الطموح والانفتاح والحماس. بفضل هذا الميناء، استطاع أن يضمن مداخيل جمركية هامة وقارة وتمكن من جهة أخرى من الاطلاع على التجارة الدولية. وتم له ذلك بفضل استعماله لأهل الذمة واستخدامه لشبكات اتصالاتهم في العالم. إلا أن اعتماد السلطان على التجارة الخارجية واستعماله للوسطاء والسماسرة جعلته يرتبط المغرب بالعالم الخارجي وبالوسطاء الذين يهتمون أساسا بمصالحهم. فما أن تهز المغرب أزمة من الأزمات حتى يكونوا أول من يتخلى عن السلطان وعلى البلاد حرصا منهم، على حماية مصالحهم وأرباحهم كما تبين ذلك أحداث مغرب القرن التاسع عشر التي انتهت بلجوء هؤلاء السماسرة إلى الاحتماء بالقوى الأوربية وسعوا إلى جر مجموعة من المغاربة الذين دخلوا في حماية الدول الأجنبية فأضعفوا البلاد وخربوا الاقتصاد وخلخلوا أركان الدولة التي أرغمت بدورها على الدخول في مرحلة التنازلات تلو التنازلات إلى أن انتهى الأمر بعقد الحماية سنة 1912.

فالبحر في المتخيل الرسمي تظهر معالمه في اتجاهين: الأول، سياسي وأمني: بمعنى أن البحر يكون إما أداة تستخدم للتوسع (المرابطون ـ الموحدون) أو أداة قلق ومصدر أخطار ويتجسد ذلك في مراحل التوسعات الأوربية منذ التاريخ القديم وإلى وقت قريب. وأما الاتجاه الثاني، فينحصر في البعد الاقتصادي الصرف. وبمعنى آخر نقول ونقر أن المتخيل الرسمي لا يمكن الفصل فيه فيما بين ما هو متخيل وما هو ملموس لأن هذا الأخير ما هو إلا انعكاس لتصورات وقناعات الإنسان الفاعل أي السياسي.





الخاتمة.

من خلال هذه المقاربة السريعة، يظهر أن المتخيل المغربي مسألة كُلية تومن بالتعدد وبالاختلاف. وأن مقاربة المتخيل تقتضي وتحتم المعالجة الدينامية لا المعالجة الجامدة والمجمدة. فمتخيل العصور القديمة يختلف عن متخيل الفترة المعاصرة. فمعرفة المتخيل تتطلب معرفة القواعد سوسيو/ اقتصادية/ ثقافية التي تشده. وبناء وتشييد الهوية والشخصية الوطنية يحتمان الأخذ بعين الاعتبار العناصر المكونة لهذه المتخيلات (العامية - العالمة - المخزنية) لأن العناصر المكونة لها عناصر غنية وخصبة ومتحركة وتحمل في طياتها ملامح التجديد وأسس الحداثة.



البـيـبـلـيـوغـرافـيـة المـسـتـعـمـلـة.

- الشريف الإدريسي . ـ نزهة المشتاق في اختراق الآفاق،نشر . هنري بيريس، الجزائر 1957 .

- ابن الزيات . ـ التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق أحمد التوفيق، الدار البيضاء 1974 .

- ابن بطوطة . ـ تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق منتصر علي الكتاني، بيروت 1979 .

- الوزان (الحسن) . ـ وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الرباط 1980 .

- الزياني (أبو القاسم) . ـ الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا، تحقيق عبد الكريم الفيلالي، المحمدية 1967 .

- التادلي (ابن إبراهيم) . ـ زينة النحر في أمور البحر، مخطوط، خ. ع، د. 1327 .

BRUNOT (L).
- La mer dand les traditions et les industries, indigènes à Rabat et Salé. Paris, 1920.

BRUNOT (L).
- Notes lexicographiques sur le vocabulaire maritime de Rabat et Salé, Paris 1920.

Colin (G).
- Notes de dialectologie arabe: observatins sur un vocabulaire mautime 2éme trim, 1924. pp. 175.

Montagne (R).
- Les marins indigènes de la zone française du Maroc. Hespéris, T. III, 2éme trim 1923. pp. 174, 216.

Le Maroc et l'Atlantique, coor. A. KADDOURI, Casablanca 1992.

Le Maroc et la mer. Revue Maroc-Europe, Rabat 1992, N



Conception & Réalisation :



Impression : Editions OKAD

Dépôt légal : 913 / 1998